اليقين العقلي مقابل يقين ما بعد العقل عند الغزالي

صبحي ريان

المقدمة

يعتبر البحث عن العلم الحقيقي الهدف الأول الذي سعى الغزالي إلى تحقيقه, وقد حدد في بداية بحثه أن اليقين هو المعيار الذي يزن به علومه المكتسبة بواسطة التقليد والحس والعقل. وهذا جعله يقوم بعملية مراجعة نقدية وتقييم شاملة للموروث المعرفي المكتسب لكشف أخطائه وضلالاته, ويكتشف الغزالي أن الأساس اليقيني الذي يجب أن تبنى عليه هذه العلوم هو الفطرة الأصلية والتي تشكل نقطة البداية التي تمنح اليقين للعلوم والموجودات في عالمي الملك الملكوت. وبالرغم من أن البداية واحدة, إلا أن مفهوم اليقين مختلف فيهما, فضلا عن الطريق الموصل إليه. وهذا الاختلاف يعكس حقيقة الاختلاف بين هذين العالمين.

في هذا المقال أحاول توضيح مفهومي اليقين في فلسفة الغزالي وتسليط الضوء على مقاطع التشابه والاختلاف بينهما. فقد ميز الغزالي بين اليقين العقلي ويقين ما بعد العقل. فالأول هو نفي الشك عن الأشياء التي يحدها العقل, أو الأشياء الموجودة في عالم الملك والشهادة التي تخضع لأحكام العقل. بينما اليقين الثاني فهو المعرف باستيلاء اليقين على النفس ومجاله عالم الملكوت ووسيلة الوصول إلى هذا العلم هو طور ما بعد العقل.

اعتقد أن الاختلاف بين هذين العالمين هو أن لكل عالم منهج ومضمون مغايران للآخر. وتقوم العلاقة بينهما على أساس منطق التشابه والاختلاف وليس على مبدأ التناقض والتطابق. ويقوم مفهوم اليقين الشامل على التفاوت المعرفي بإطار منظومة معرفية تسعى لبلوغ المطلق المعرفي, وكل مرتبة تشمل المرتبة التي تسبقها وتكملها, إذا هي نوع من المعرفة التي لا حدود لها.

اليقين العقلي

يحدد الغزالي دور اليقين العقلي في إزالة الشك عن العلوم والموجودات في عالم الملك, ولا يتعدى ذلك إلى عوالم أخرى. وهذا يعني أن العقل هو الميزان الذي يحكم بصحة الأشياء أو خطأها, كما انه يمكن للعقل أن يصل إلى حقائق الأشياء ويقينها في هذا العالم. فاليقين هو المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذي لا يشك فيه، ولا يتصور الشك فيه فإذا امتنع وجود الشك وإمكانه يسمى يقينا(1). ويشرح الغزالي مراتب النفس المختلفة بواسطة مثال: إذا قيل للعاقل هل في الوجود شيء هو قديم؟ فالعاقل لا يمكنه التصديق به بالبديهية لأنه القديم غير محسوس، وليس العلم بوجود شيء قديم أزلي ضروريا مثل العلم بأن الاثنين أكثر من الواحد. وهناك من الناس من

يسمع ذلك ويصدق بالسماع تصديقا جزميا ويستمر عليه وذلك هو الاعتقاد وهو حال جميع العوام. ومن الناس من يصدق بالبرهان وهو أن يقال له أن لم يكن في الوجود قديم فالموجودات كلها حادثة فان كانت كلها حادثة فهي حادثة بلا سبب أو فيها حادث بلا سبب. وذلك محال، والمؤدي إلى المحال محال. فيلزم في العقل التصديق بوجود شيء قديم بالضرورة لأن الأقسام ثلاثة. وهي أن تكون الموجودات كلها قديمة أو كلها حادثة أو بعضها قديمة وبعضها حادثة فان كانت كلها قديمة فقد حصل المطلوب إذ ثبت على الجملة قديم، وان كان الكل حادثا فهو محال اذ يؤدي إلى حدوث بغير سبب فيثبت القسم الثالث أو الأول.[2] إذا، كل علم يحصل بهذه الطريقة يسمى يقينا عند النظار والعلماء، بمعنى أن كل علم يكون يقينا عندما يحصل بواسطة المشاهدة، الحس، غريزة العقل أو بالتواتر. وتفسيرا مشابها لليقين العقلي يعرضه الغزالي في كتاب "المستصفى"، الأمر الذي يدل على تفكير تتابعي ومترابط منطقيا، يمتاز بمنهجية واضحة تستبعد إمكان المتناقضات المنطقية، وينبني عليه، أن نظرية اليقين عند الغزالي تمثل يقين العقل النظري.

بحث الغزالي قضية اليقين في مجال المنطق، هادفا فحص معارفه، هل هي معارف حقيقية؟ أم تقوم على الشك؟ فكان بحثه عن المعرفة الحقيقية المطلقة التي لا يخالفها شك أو ريب. مدعيا أن البرهان الحقيقي ما يفيد شيئا لا يتصور تغيره ويكون ذلك بحسب مقدمات البرهان فإنها تكون يقينية أبدية لا تستحيل ولا تتغير أبدا. وأعني بذلك أن الشيء لا يتغير وان غفل إنسان عنه كقولنا الكل أعم من الجزء ... فالنتيجة الحاصلة منها أيضا تكون يقينية.[3] هذه المعرفة اليقينية تكون معرفة موضوعية وحقيقية، أو كما يطلق عليها الغزالي معرفة حقائق الأشياء كما هي أو الحقيقة الأزلية.

إذن، الاستناد على قواعد المنطق والتفكير الخالص، يشكل أساسا قويا للوصول إلي الحقائق اليقينية، لذا يكون التناقض مستحيلا بالبراهين الشاملة لشروط المنطق. كما أن التناقضات الناتجة عن البراهين المنطقية لا تدل على عدم إمكانية اليقين الحقيقية، إنما تدل على عدم الاعتماد على قواعد المنطق والعقل بصورة صحيحة، فالتناقض قد ينتج عن عدم يقينية شروط البرهان، واغلب الأخطاء تكون على اعتبار " مقدمات البرهان على أنها أولية ولا تكون أولية بل ربما تكون محمودة، مشهورة أو وهمية".[4] بالإضافة لهذا السبب

هناك مصدر آخر للأخطاء المنطقية، وهو التعامل مع الأوليات العقلية على أنها ليست أوليات، والظن بما ليست من الأوليات أنها من الأوليات، ولا يشكك في الأوليات إلا بزوال الذهن عن الفطرة السليمة.[5]

مقدمات اليقين العقلي

يحاول الغزالي تأسيس العلوم على مقدمات صحيحة أو بدهيات عقلية يصعب دحضها, ونلاحظ أن هذه المقدمات هي أوليات حسية وعقلية, باعتبار أن الحس والعقل هما مصدرا المعرفة الإنسانية لإدراك هذا العالم. وتنقسم المقدمات اليقينية إلى أربعة أصناف:[6]

أ) **الأوليات العقلية المحضة**: وهي القضايا التي يتوصل ذات العقل بمجرده إليها من غير استعانة بحس أو تخيل مجبل على التصديق بها. مثل علم الإنسان بوجوده نفسه وان الاثنين اكثر من الواحد.

ب) **المحسوسات**: كقولنا القمر مستدير والشمس منيرة، هذه القضايا لا يستطيع العقل المجرد الوصول إليها إلا إذا اقترن بالحواس، فالعقل يدركها بواسطة الحواس، وهذه أوليات حسية. وهناك أيضا المشاهدات الباطنية كعلمنا بأن لنا فكرا وخوفا وغضبا وشهوة وإدراكا. وهذه الأحوال الباطنية ليست من الحواس الخمسة ولا هي عقلية، وهي تنكشف للنفس بمساعدة قوى باطنة. هذه المحسوسات على نوعيها لا يشك في صدقها، وتفضي إلي اليقين إذا استثنيت أمور عارضة مثل ضعف الحس وبعد المحسوس وكثافة الوسائط.

جـ) **المجربات** وهي أمور وقع التصديق بها من الحس بمعاونة قياس خفي كحكمنا بأن الخبز مشبع والنار محرقة. والحدسيات هي من صنف المجربات، باعتبارها قضايا مبدأ الحكم بها حدس من النفس يقع لصفاء الذهن وقوته. وفي المستصفى[7] يتحدث الغزالي عن المجربات وعبر عنها باطراد العادات واعتبر أن المعلومات التجريبية يقينية عند من جربها والناس يختلفون في هذه العلوم لاختلافهم بالتجربة، وتختلف المجربات عن المحسوسات لأن مدرك الحس هو أن الحجر يهوي إلى الأرض وأما الحكم بان كل حجر هاو فهي قضية عامة لا قضية في عين، فالحكم في الكل إذا هو للعقل، ولكن بواسطة الحس أو بتكرر الإحساس مرة بعد أخرى، إذ المرة الواحدة لا

يحصل العلم بها فإذا تكرر مرات كثيرة في أحوال مختلفة انغرس في النفس يقين وعلم بأنه المؤثر، وهذا يدل أن العقل قد ناله بعد التكرر عن الحس بواسطة قياس خفي وكأن العقل يقول: لو لم يكن هذا السبب يقتضيه لما اطرد في الأكثر ولو كان بالاتفاق لاختلف. للوهلة الأولى يخيل لنا أن الغزالي يتحدث من خلال اعتقاد نفساني يقضي باستمرارية قواعد الماضي في المستقبل أيضا. لكن يمكننا أن نستنتج من النقاش انه استعمله ليدلل على أن اليقين ليس نفسانيا فقط، إنما هو معرفيا أيضا وقد ذكر الغزالي أن المشاهدة لوحدها لا تمنح لنا هذا اليقين، بل بالإضافة لهذه المشاهدة هناك ادعاء خفي أو كما عبر عنه بالقوة الخفية القياسية التي تؤثر على استمرارية النظام الثابت في الطبيعة.(8)

د) **القضايا التي عرفت لا بنفسها بل بوسط**، ولكن لا يعزب عن الذهن أوساطها، بل كلما أحضر جزئي المطلوب حضر التصديق به لحضور الوسط كقولنا الاثنان ثلث الستة. إذا المقدمات التي تصلح أن تكون يقينية هي من الأصناف الثلاثة: العقليات المحضة، الحسيات والمجربات وكذلك القضايا النظرية (كالصنف الرابع التي هي نتائج أقيسة اشتقت من مقدمات هي من الأصناف الثلاثة والتي تعتبر مقدمات يقينية بديهية.

حاول الغزالي إيجاد علاقة بين المنطق والعقل من جهة وبين الأخلاق والدين من جهة أخرى وقد أكد على الفوارق الماهية بين الجانبين عن طريق كشف المستويات المختلفة في هذه المجالات وينعكس هذا التوجه في تقسيمه المقدمات إلى مرتبتين:(9)

أ) **مقدمات يقينية** كما ذكر سابقا.

ب) **مقدمات غير يقينية** التي لا تصلح للبراهين، وينقسم هذا النوع من المقدمات إلى قسمين:

1) نوع يصلح للظنيات الفقهية دون اليقينات وهي ثلاثة أصناف مشهورات ومقبولات ومظنونات.

2) **مقدمات لا تصلح للقطعيات ولا للظنيات**. كالوهميات الصرفية والأشياء المستندة إلى أصل أقل من الظنيات.

من الواضح في هذا التقسيم أن الغزالي قد أخرج من دائرة المقدمات اليقينية جميع أنواع المقدمات التي لا تنتج عن بدهيات حسية أو عقلية, لأنها لا تساهم في تأسيس اليقين. من جهة أخرى نرى أن اليقين يطابق الحقيقة المطلقة أو الأوليات العقلية. ونلاحظ أن المقدمات الغير يقينية تعتمد على أصناف من المعارف المتغيرة والنسبية.

يعرف الغزالي العلم اليقيني "بأن تعرف أن الشيء بصفته كذا مقترنا بالتصديق بأنه لا يمكن أن يكون كذا، فإنك لو أخطرت ببالك إمكان الخطأ فيه والذهول عنه لم ينقدح ذلك في نفسك أصلا فان اقترن به تجوز الخطأ وإمكانه فليس بيقيني".[10] وقد عبر الغزالي عن هذه الفكرة بوضوح ودقة في كتابه "المنقذ من الضلال": "العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ولا يسع القلب لتقدير ذلك".[11] وفي مكان آخر يكرر الغزالي فكرة اليقين ويحاول إيجاد المطابقة بين اليقين وحالة النفس المعرفية، فاليقين هو "أن يتيقن ويقطع به وينضاف إليه قطع ثان، وهو أن يقطع بأن قطعها (النفس) به صحيح ويتيقين بأن يقينها فيه لا يمكن أن يكون به سهو ولا غلط ولا التباس، فلا يجوز الغلط في يقينها الأول ولا في يقينها الثاني ويكون صحة يقينها الثاني كصحة يقينها الأول، بل تكون مطمئنة آمنة من الخطأ".[12]

يُعبر تعريف العلم اليقيني في الكتب الثلاثة عن التوجه العقلاني عند الغزالي ويعكس الترابط المنطقي في تطوره الفكري عبر مراحل حياته المختلفة. مثلا يعبر التعريف في "معيار العلم" عن صورة اليقين المنطقية وفي "المستصفى" نجد صورة اليقين الفقهية، أما في "المنقذ من الضلال" نجد التعبير النقدي الواقعي. ونلاحظ أن البحث عن معرفة حقائق الأشياء كان نتيجة لرفضه ونقده للتقليد كطريق يوصل إلى المعرفة الحقيقية وبعد ذلك جاء بحثه عن حقيقة المعرفة كما هي. وواضح أيضا أن الغزالي في "معيار العلم" يؤكد قبوله للأوليات العقلية ونجده في "المنقذ من الضلال" يصف بدقة كبيرة عملية البحث عن اليقين وتأكيده الواثق بالأوليات العقلية كمقدمات يقينية للعلم الحقيقي، وهكذا يكون بحث الغزالي عن اليقين في كتبه الثلاثة تعبيرا عن يقين التجربة العقلية. وعرض فكرة دينية عالمية، والتي بها تكون الميتافيزيقيا والأخلاق شاملة لكل العلوم، والمناهج والتجارب المناسبة للإسلام — كل مستويات التجربة الإسلامية، فكرة الإيمان والممارسة من خلال وحدة شاملة.[13]

اليقين الصوفي ومقدماته

يحدد الغزالي أن مجال اليقين الصوفي هو عالم الملكوت, ويعتبر هذا اليقين مرحلة معرفية تأتي بعد اليقين العقلي, تهدف إلى كشف حقائق الأشياء كما هي. وتعتمد هذه المرحلة على أدوات معرفية خاصة تلائم المضامين الموجودة في عالم الملكوت.

واصطلح الفقهاء والمتصوفة وأكثر العلماء على تعريفه بأنه "لا يلتفت فيه إلى اعتبار التجويز والشك بل إلى استيلائه وغلبته على العقل، وكلما مالت النفس إلى التصديق بشيء وغلب ذلك القلب واستولى حتى صار هو المتحكم والمتصرف في النفس بالتجويز والمنع سمي ذلك يقينا".[14] لا يكون اليقين بهذا المفهوم قضية عقلية خالصة، إنما قضية معرفية–أخلاقية، وهذا اليقين غير مطابق للمعرفة. مثلا جميع الناس يشتركون بالرأي القائل انه لا مفر من الموت، لكن الواقع مختلف. بعض الناس لا يلتفت إليه ولا يستعد له كأنه غير موقن به. ومنهم من استولى على قلوبهم حتى استغرق جميع همه بالاستعداد له ولم يترك فيه متسعا لغيره. لذا يوصف اليقين بدرجات ومراتب مختلف وينقسم حسب ذلك إلى ثلاثة أقسام: بالقوة والضعف، والكثرة والقلة، والخفاء والجلاء.

فالاختلاف بين اليقين العقلي والصوفي، هو أن الأول لا تفاوت فيه في نفي الشك بينما اليقين الصوفي مبني على مراتب نسبية متفاوتة وغير متناهية. ويكون هذا اليقين أعلى مرتبة من اليقين الأول ومتجاوزا لشروط نفي الشك عن الشيء. وفي نفس الوقت لا يتعارض معه إنما شاملا له. ويصب هذا التوجه في مصب الفكرة القائلة بوحدة العقلانية والصوفية في نظرية الغزالي. ومن هذا المنطلق دعى علماء الآخرة للاهتمام في تقوية اليقين "بالمعنيين جميعا وهو نفي الشك ثم تسليط اليقين على النفس حتى يكون هو الغالب المتحكم عليها المتصرف فيها".[15] وهذه العملية يمكن بواسطتها الانتقال من المعرفة اليقينية إلى عين اليقين ومن ثم إلى حقيقة اليقين. وهذه المراتب تقابل ثلاثية أخرى وهي القوة، الجلاء وعدم نهائية اليقين. فالقوة والضعف تتعلق بحالة اليقين، بينما الخفاء والجلاء تتعلق بالقضايا المحسوسة، فهناك تفاوت معرفي يتأثر من قوة السبب وهو كثرة المخبرين لأنه هذه القضايا تستند إلى التواتر. أما القلة والكثرة تتعلق بكثرة المعلومات أو قلتها. فقد تجد عالما قوي اليقين في جميع الأمور الشرعية، وهناك من هو قوي اليقين في جانب منه.[16] ويحاول الغزالي الربط بين اليقين وبين الأشياء المتعلقة به ويطلق عليها

"مجاري اليقين" وأول هذه الأمور هو "التوحيد وهو أن يرى الإنسان الأشياء كلها من مسبب الأسباب (الله) ولا يلتفت إلى الوسائط بل يرى الوسائط مسخرة لا حكم لها فالمصدق بهذا موقن".[17]

أما في حاله نفي الشك فقط يكون أيضا موقنا على المستوى العقلي لليقين، بينما الموقن بدرجة الاشراف هو الذي يرتقي إلى مرتبة إزالة الغضب على الوسائط والرضا عنهم والشكر لهم، ونزل الوسائط في قلبه منزلة القلم واليد في حق المنعم بالتوقيع فإنه لا يشكر القلم ولا اليد ولا يغضب عليهما بل يراهما آليتين مسخرتين. واليقين الإشرافي هو ثمرة اليقين العقلي وروحه وفائدته. وكلما حقق الإنسان هذه المعاني واعتبر أن "القدرة الأزلية هي المصدر للكل استولى على قلبه غلبة التوكل والرضا والتسليم وصار موقنا بريئا من الغضب والحقد والحسد وسوء الخلق".[18]

لا يعتقد الغزالي أن حدوث الأشياء في العالم تعمل بموجب قانون السببية "لكل سبب مسبب بالضرورة". فهو ينفي حكم الضرورة عن السببية كونها متعلقة بإرادة الله، ومن جهة أخرى لا ينفي الغزالي وجود السببية في العالم، بمعنى أنها موجودة لكنها ليست ضرورية لأن الله هو السبب الحقيقي لحدوث الأشياء في العالم. كما انه لا ينكر وجود السببية الطبيعية الفاعلة في العالم المحسوس، فهي أسباب ثانوية غير حتمية ولا تمثل السبب الحقيقي أو مسبب الأسباب.

هذا يفسر لنا معنى عدم غضب إنسان اليقين الإشرافي على الوسائط أو الوسائل كونها ليست الأسباب الحقيقية المؤدية إلى النتائج، فهو يتعامل مع الوسائل كتعامله مع قلم ويد صاحب التوقيع. وواضح هنا الفرق بين صاحب التوقيع وبين القلم، فالأول يتصرف بحكم إرادته، بينما القلم فاقد الإرادة لذلك ننسب النتيجة لصاحب التوقيع وهو السبب الحقيقي.

بالإضافة إلى التوحيد هناك أمور أخرى تتعلق باليقين مثل: الثقة بضمان الله سبحانه بالرزق واستيلاء الفكرة القرآنية على القلب القائلة" فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره".[19]

يذكر الغزالي نماذج من مجاري اليقين لكشف دورها الوظائفي الأخلاقي، فمثلا اليقين بأن الله هو الرازق يؤدي إلى طاعة الله والخلق الحسن، كما أن اليقين بالجزاء

والعقاب يولد صدق المراقبة في الحركات والسكنات والخطرات والمبالغة في التقوى والتحرز عن كل السيئات. واليقين بمراقبة الله الدائمة، تكسب الإنسان أدبا في جميع أحواله، وفي كل حركة تخالف هيئة الأدب ويكون في فكرته الباطنة كأعماله الظاهرة. وهذه المرتبة اليقينية تورث الحياء والخوف والانكسار والذل والاستكانة والخضوع وجملة من الأخلاق الحميدة.[20]

بهذا المفهوم يعكس اليقين وحدة مكونه من المعرفة والحال والعمل، وحدة تقوم على التفاضل المرتبي والوظائفي وتترابط بشبكة علائقية إيجابية تُساهم بها الأطراف الثلاثة. للوصول إلى التكامل والوحدة المعرفية. ومحاولة للكشف عن الوحدة المطلقة في الوجود، المستندة في وجودها وديمومتها من المطلق وهو الله تعالى، هذه المحاولة عبر عنها الغزالي بمثال رمزي بواسطة حوار بين العارف والكاغد[21] (القرطاس)، أراد الغزالي أن يبين من خلال هذا الحوار أن التفكير العقلي لا يكفي لإدراك الحقائق في عالم الملكوت، لأن البحث عن الحقيقة بواسطة العقل فقط، يجد نفسه في دائرة مفرغة لا نهائية، وهذا المسلك يستلزم الرجوع إلى الأوليات العقلية المحضة (القلم) وينبني عليه البحث عن آلية تفكير جديدة تناسب المقام الجديد، آلية يمكنها الوصول إلى اليقين لإدراك حقيقة التوحيد، ولا يمكن الوصول إلى هذه المرتبة إلا بعد التغلب على العوائق في العوالم الثلاثة:

1) **عالم الملك والشهادة**: يشمل العالم المحسوس المدرك بالحواس ويرمز إليه في الحوار الإنسان، الحبر اليد والقلم.
2) **عالم الملكوت**: وهو العالم الماورائي أو الغيب.
3) **عالم الجبروت**: وهو عالم يتوسط العالمين السابقين ويرمز أليه في الحوار بالقدرة، الإرادة، والعلم.

جدلية العلاقة بين العقل وما بعد العقل

لذا تكون مهمة البحث العقلي والصوفي هي التغلب على العوائق في عوالم الملك والملكوت والجبروت من خلال عملية التنقية الدائمة والممكنة توسلا بالتمسك بالأخلاق المطلقة، فالعقل لوحده لا يقدر على وصف الأمور الإلهية، كما أن القوى الوهمية والخيال لا يرتقون إلى هذا المقام. وهذا شبيه بعجز حاسة البصر إدراك الأصوات. وعجز العقل في هذا المجال ناتج عن قيود الجوهر وصفاته. لذلك تدرك الأمور الربانية بنور آخر أعلى

واشرف من العقل ويشرق هذا النور في عوالم النبوة والولاية، ونسبة هذا النور إلى العقل كنسبة العقل إلى الوهم والخيال وقد خلق الله تعالى الخلق أطوارا فكما يدرك الصبي المحسوسات ولا يدرك المعقولات لان ذلك طور لم يبلغه بعد فكذلك يدرك البالغ المعقولات ولا يدر ك ما وراءها لان ذلك لم يبلغه بعد.[22]

نلاحظ بوضوح أن المنهج المتبع للوصول إلى يقين طور ما بعد العقل هو منهج أخلاقي متعال يتطلب لتحقيقه سلوك عملي متواصل وصارم. وهذا المنهج لا يستند إلى منطق العقل المجرد أو البرهان, وفي نفس الوقت لا يتناقض معه. لأنه "لا يمكن ظهور شيء في طور ما بعد العقل ويحكم العقل باستحالته"[23]. وهذا يعني أن الغزالي يقول بتعدد المناهج وتعدد المضامين الفلسفية أيضا. وليس كما يدعي المفكر المغربي طه عبد الرحمن "أن الغزالي أخطأ عندما قال بتوحد وسيلة الفلسفة مع تعدد مضمونها "[24]. وهو الخطأ نفسه الذي وقع به مفكر آخر عندما ادعى أن الغزالي أسس الفضائل الصوفية على مناهج مشابه التي تقوم عليها الفضائل الفلسفية[25].

اعتقد أن اختلاف المضمون في فلسفة الغزالي أوجب اختلاف المنهج. مثلا, البرهان المنطقي يوصل إلى العلم اليقيني في القضايا المتعلقة بموجودات العالم الحسي. لكن لا يمكن للبرهان أن يشكل أساسا أو وسيلة توصل إلى حقائق العالم الميتافيزيقي, لذلك يمكن القول أن لكل عالم منطقه الخاص به, مناسبا لمضامينه, مختلفا عن الآخر, وليس متناقضا معه.

إن الوصول إلى المرتبة اليقينيـة العالية يستلزم المرور عبر مدارج لا نهائية من اجل الوصول إلى سر المطلق، إنها مرتبة نسبية تمتاز بالتفاوت، فليس جميع الواصلين مقام واحد إنما درجات متفاوتة، ويصفها الغزالي: "فيها يلحظ جناب الحق بنور الإيمان واليقين وذلك المشرب أعز من أن يكون شريعة لكل وارد بل لا يطلع عليه إلا واحد بعد واحد. ولجناب الحق صدر وفي مقدمة الصدر مجال وميدان رحب وعلى أول الميدان عتبة هي مستقر ذلك الأمر الرباني فمن لم يكن له على هذه العقبة جواز ولا لحافظ العتبة مشاهدة واستحال أن يصل الميدان، فكيف بالانتهاء إلى ما وراءه من المشاهدات العالية ؟! ولذلك قيل من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه ".[26]

هذا الوصف يصور عالما لانهائيا، يختلف اختلافا بنيويا وماهويا عن عالم الملك بالإضافة إلى الاختلاف المعرفي والوجودي المميز لكل منهما. فمن الواضح أن ينتهي حد

العقل على أبواب هذا العالم ولا بد للعقل أن يستخدم آلية تساعده على الارتقاء الكشفي، أما اقتحام العقل بمفرده هذا العالم، فلا بد للعقل أن ينكسر على أبوابه لانه فاقد لمفاتيحه! وما هذا إلا عبثا.

أما الربط بين عملية الارتقاء المعرفية اللانهائية ومعرفة النفس، يؤكد على أن معرفة النفس هي المقدمة الأساسية في عملية إدراك حقائق الوجود وحقيقة اليقين الصوفي، وشرط أساسي لا بد من تحقيقه، ويحاول الغزالي توضيح العلاقة بين عمليتي الكشف والعمل وهو بذلك يسعى لإزالة التناقض الظاهري بين العلم والحال والعمل، ومن جهة أخرى بناء العلاقة التفاضلية بينهم من خلال عملية فصل غائية تعتمد على اختيار أولويات الترتيب، ويجعل هذا الفصل مرحليا لدمجه لاحقا في إطار واسع تذوب به عمليه الفصل والاختلاف. كان هدف الغزالي عرض رؤية دينية كونية يكون بها الميتافيزيقيا والأخلاق شاملة لكل العلوم والأنظمة والتجارب التي تتوافق مع الإسلام، وجميع مستويات التجربة الإسلامية، المعرفة، العقيدة والممارسة العملية داخل وحدة شاملة.

ويقسم الغزالي مراتب المعرفة إلى ثلاثة أمور: علوم، أحوال وأعمال. ويختلف تصنيف هذه المراتب بين أهل العلم (الناظرون في الظواهر بحسب تعبير الغزالي)، وبين أرباب البصائر. "فالعلوم تراد [عند أهل العلم] للأحوال، والأحوال تراد للأعمال، والأعمال هي الأفضل؛ أما أرباب البصائر فالأمر عندهم بالعكس من ذلك؛ فان الأعمال تراد للأحوال والأحوال تراد للعلوم فالأفضل العلوم ثم الأحوال ثم الأعمال، لأن كل مراد لغيره فذلك الغير لا محال افضل منه".[27] يلاحظ أن هذا التصنيف يقوم على اعتبارات غائية، فإذا كانت الأعمال غاية بحد ذاتها فتصبح العلوم والأحوال وسائل تخدم الغاية المنشودة وهذا ما يميز المعرفة العلمية التي تبحث بظواهر الأشياء. أما البحث عن حقائق الأشياء كما هي تميز أهل البصائر، فالعلوم هي غاية بذاتها لذاتها، يسبقها الأحوال والأعمال كوسائل لا قيمة لها بذاتها بل لغيرها. وتمتاز كل مرتبة بالتفاوت التفاضلي والنسبي وليست درجة واحدة مساوية عند جميع الناس، "وأفضل المعارف علوم المكاشفة وهي ارفع من علوم المعاملة بل علوم المعاملة دون المعاملة لأنها تراد للمعاملة ففائدتها إصلاح العمل، وإنما فضل العالم بالمعاملة على العابد إذا كان علمه مما يعم نفعه فيكون بالإضافة إلى عمل خاص أفضل، وإلا فالعلم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر،

فنقول: فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب، وفائدة إصلاح حال القلب أن ينكشف له جلال الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله، فأرفع علوم المكاشفة معرفة الله سبحانه. فهي الغاية التي تطلب لذاتها، فان السعادة تنال بها هي عين السعادة".[28]

يلاحظ في هذا الوصف، التفاوت المرتبي داخل كل مرتبة، وعلاقة كل مرتبة مع المرتبة الأخرى داخل دائرة المعاملة والمكاشفة. وتأكيد العلاقة بين المعاملة والمكاشفة، فالأعمال التي تعتبر الدرجة العليا وغاية بذاتها في المعاملة، تصبح الدرجة الدنيا في علم المكاشفة بل المقدمة الاولى المتوسل بها لبلوغ المعرفة الكشفية. لم يدع الغزالي أن الطريق الوحيد لليقين يكون من خلال الذوق فقط، لأنه ليس متوقعا أن يكون كل إنسان قادر على تذوق هذه التجربة التي تناسب هؤلاء الذين يتحملون صبر المعاناة وصعوبة مراحل التمرين والرياضة وليس من يقل درجة عن هؤلاء يحرمون من المعرفة الدينية بل هنالك أيضا طرق أخرى إلى الحقيقة، لكنها اقل وضوحا وغير مباشرة. وهذا مهم أن يوجد بالدين مسالك مختلفة للّه. إذن يعرض الغزالي نقاشه في مستويات مختلفة كي يتسنى لأصناف مختلفة من المسلمين التعامل معها بعض هذه الدعاوي تخص المؤمنين العاديين الذين أرادوا فهم العالم وبعضهم موجه للفلاسفة وبعضها تخص أهل الكلام.[29] إذاً يكون الاختلاف بين العقلاني والصوفي اختلافا مرتبيا، بمعنى أن الصوفي مطالب بتحقيق علم المعاملة أولا ومن ثم التقدم نحو علم المكاشفة للوصول إلى الغاية العليا وهي معرفة الله تعالى.

الخاتمة

نلاحظ أن فلسفة الغزالي هي بحث في عالمي الملك والملكوت وسعي لإيجاد علاقة بينهما. وكل عالم يتكون من مضامين معينه ومناهج تتوسل لتحقيق هذه المضامين. مثلا, يحاول الغزالي أن يقابل بين كلا العالمين من حيث المضمون والشكل ونسبة كل منهما إلى ما يقابله في العالم الآخر على الشكل التالي: عالم الملك والشهادة — عالم الملكوت, العقل — طور مابعد العقل, المنطق — المنهج الأخلاقي, اليقين العقلي — يقين ما بعد العقل.

إذا العقل ويقينه حدودهما عالم الملك والشهادة, بينما طور ما بعد العقل ويقينه مجاله عالم الملكوت. فالعقل لا يصلح لكشف حقائق عالم الملكوت, من جهة أخرى لا يمكن لهذه الحقائق أن تتنافى مع العقل. والعقل شرط أساسي لوجود طور ما بعد العقل,

لذا يجب النظر إلى طور ما بعد العقل كمرحلة تتقدم العقل وتشمله, تختلف عنه ولا تتناقض عنه.

إن اختلاف مضامين اليقين في كلا العالمين, جعل الغزالي يحدد مناهج مختلفة تتلاءم مع هذه المضامين. مثلا, اعتبر العقل أداة البحث الأساسية في عالم الملك وجعل المنطق قانون العقل. من جهة أخرى فان طور ما بعد العقل والمنهج الأخلاقي يمثلان أدوات البحث في عالم الملكوت. لذلك يكون التوسل إلى اليقين في عالم الملك بواسطة العقل والمنطق, بينما اليقين في عالم الملكوت يتوسل أليه عبر طور ما بعد العقل والمنهج الأخلاقي.

الهوامش:

1) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج1، دار الفكر، (بدون تاريخ) ص73.
2) الغزالي، نفس المصدر، ص73.
3) الغزالي، معيار العلم في المنطق، شرح احمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990، ص23
4) الغزالي، نفس المصدر، ص236.
5) الغزالي، نفس المصدر، ص236.
6) الغزالي، نفس المصدر، ص178.
7) الغزالي، المستصفى، تحقيق محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996، ص36
8) Marmura, Michael E. "Ghazali and Demonstrative Science", Journal of the history of Philosophy, pp. 183-204, vol III, 1965, U.S.A, pp. 195 .
9) الغزالي، معيار العلم، ص184.
10) الغزالي، نفس المصدر، ص235
11) الغزالي، المنقذ من الضلال، تحقيق، جميل صليبا وكامل عياد، دار الأندلس، بيروت (بدون تاريخ) ص82.
12) الغزالي، المستصفى، ص35.

13) Frank, R.M, Al-Ghazali and Ash'arite School, Duke University press, 1994, p. 88.

14) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج1، ص73.

15) الغزالي، نفس المصدر، ج1, ص74.

16) الغزالي، نفس المصدر، ج1, ص74.

17) الغزالي، نفس المصدر، ج1, ص74.

18) الغزالي، نفس المصدر، ج1, ص74.

19)القرآن الكريم، سورة الزلزلة.

20)الغزالي، إحياء علوم الدين، ج1، ص75.

21)الغزالي، نفس المصدر، ج4، ص249.

22)الغزالي، نفس المصدر، ج4, ص115.

23) الغزالي, المقصد الأسنى، نشر الشيخ مصطفى محمد أبو العلا، مصر، 1968, ص151.

24) طه عبد الرحمن,اللسان والميزان أو التكوثر العقلي, المركز الثقافي العربي, الدار البيضاء, 1998, ص322.

25) Mohamed Ahmed Sherif, Ghazali's Theory Of Virtue ,State University Of New York Press, 1975, p111.

26) الغزالي، نفس المصدر، ج4, ص115.

27) الغزالي، نفس المصدر، ج4, ص137.

28) الغزالي، نفس المصدر، ج4, ص137.

29) Oliver, Leaman, "Ghazali and the Ash'arites", Asian Philosophy, vol. 6, No. 1, United Kingdom, pp. 26.

תקציר

במאמר זה אנסה להבהיר את שתי המשמעויות של הוודאות אצל אלגזאלי, ולהאיר את החלקים הדומים והשונים ביניהם. הוודאות השכלית היא שלילת הספק בדברים הקיימים בעולם החומרי שהם במסגרת שיפוטו של השכל. בעוד שהוודאות הפוסט שכלית היא השתלטות הידיעה הוודאית על הנפש באופן מוחלט, והיא עוסקת בדברים של עולם המיטאפיזי (המלכות), והדרך המובילה לוודאות זו היא הפוסט שכלי.